قبس من الإعجاز القرآني في مجال الاقتصاد

للأستاذ الدكتور

شوقي أحمد دنيا

أستاذ الاقتصاد

وعميد كلية التجارة - جامعة الأزهر بالمنصورة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ . وبعد ،،

فهذه ورقة حول الإعجاز القرآني فى المجال الاقتصادى ، نقدم لها بتمهيد يحتوى على بعض المسائل ذات الأهمية فى موضوعها .

من المهم التنبية سلفا الي عدة أمور هي :

١ ـ من المعلوم من الدين بالضرورة أن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق، ونظام وعمل أو هو حسب التعبير الشائع دين ودنيا ، والتعبير الأصح أنه دين للدنيا وللآخرة، مقصده صلاح الدارين معاً . وبصلاح الدنيا تتم السعادة فى الآخرة. وصلاح الدنيا إنما يكون بصلاح كل ما فيها ، وجميع مجالاتها ومناحيها . ومن أهم هذه المجالات المجال الاقتصادى ، الذى يؤمّن للإنسان

كحد أدنى متطلباته البدنية ، حتى يتمكن الإنسان من ممارسة مهامه ووظائفه فى العبادة والخلافة وعمارة الدنيا طبقاً للمنهج الإلهى ، ومن ثم تصلح له دنياه وتصلح له آخرته .

وبهذا يتقرر بداهة أن للإسلام هدايته فى المجال الاقتصادى .

٢ ـ ومن المعلوم من الدين بالضرورة كذلك أن المصدر الأول للإسلام هو القرآن الكريم ، والقرآن الكريم من حيث هو ، فى غير حاجة الى تعريف ، إذ يعرفه القاصى والدانى ، والجاهل والعالم ، والمسلم وغير المسلم . بيد أنه من حيث صفاته وخصائصه فى حاجة الى بعض التوضيح والتعريف .

وليس من مهمة هذه الورقة الذهاب وراء تقصى هذه الصفات والخصائص لكنها تهتم أساساً بالتنوية بصفة من صفاته ذات صلة وثيقة بموضوعها . ونحاول الإشارة الى هذه الصفة من خلال الاستماع الى القرآن نفسه والى السنة الشريفة والى كلام الجن عنه والى كلام المشركين فيه .

(أ) القرآن كما وصفه الله تعالى فى القرآن نفسه هو هدى وهو نور ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٧٩] ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة:١٥] ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[النساء : ١٧٤] .

(ب) القرآن كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو إن شئت قلت ، كما وصفه الله تعالى على لسان رسوله الذى لا ينطق عن

الهوى وإنما هو الوحى الإلهى ، فى حديثه الشريف الذى أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن على رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ..... » .

(ج) القرآن الكريم كما وصفه الجن حين سمعوا بعضه من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن ١ ـ ٢] ، ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] .

(د) القرآن الكريم كما وصفه رجل من المشركين هو الوليد بن المغيرة .. وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ،

من ذلك يتضح لنا بجلاء أن القرآن الكريم هو كتاب هداية ، وصلت الى ان تكون نوراً محساً يكشف كل معالم الطريق ، كما أنه هداية شاملة محيطة ، وان عجائبه لا تنتهى ، وانه فى نظر الجن ليس كتاباً عجيباً وإنما هو كتاب عجب ،وذلك أبلغ ما يكون فى صفة الشئ ، وهو عند المشركين يعلو كل ماعداه ولا يعلو عليه شئ .

الإعجاز القرآني

من المواطن التى نالت اهتمام الباحثين على مر العصور وحتى عصرنا هذا موطن الإعجاز القرآنى ، وخاصة الإعجاز البيانى ، فى العصور السابقة [١] ، والإعجاز العلمى ، أو بعبارة أدق الإعجاز فى مجال العلوم الطبيعية فى عصرنا هذا .

وممن تكلم فى إعجاز القرآن النظام ، والجاحظ ، وابن حزم ، والواسطى ، والرمانى ، وعبد القادر ، والباقلانى والخطابى ، وابن سراقه ، والرافعى [٢] ، ودراز [٣] ، والخولى وأبو زهرة [٤] ، وعرجون ، والنجار ، وأحمد شوقى ، وغنيم ، وغيرهم كثير . ولن نزج بأنفسنا فى لجة تحديد وتحليل مفهوم الإعجاز القرآنى فهذا فوق الطاقة ؛ طاقة هذه الورقة وطاقة كاتبها ، ويكفينا أن نشير مجرد إشارات علها تكون مفتاحاً لفهم هذا الموضوع وتوضيحاً لملامح هذا المصطلح الشائع . إن المصطلح مأخوذ من مادة عجز ، والعجز معروف ، إنه عدم القدرة على فعل الشئ ، وأعجزه الشئ بمعنى أنه فوق قدرته وطاقته .

والمعنى الاصطلاحى لهذا المصطلح لا يخرج عن ذلك ، فمعناه أننا أمام شئ لا نستطيع الاتيان بمثله ، **والسؤال المطروح هو : ما الذى فى القرآن لا يمكن الإتيان بمثله ؟**

---

(١) انظر للشيخ محمد الصادق عرجون ، القرآن العظيم : هدايته وإعجازه فى اقوال المفسرين ، دار القلم ، دمشق

(٢) مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن ، دار الكتاب العربى / بيروت .

(٣) د . محمد عبدالله دراز ، النبأ العظيم / نظرات جديدة فى القرآن ، دار طيبة / الرياض.

(٤) الشيخ / محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى / القرآن ، دار الفكر العربى / القاهرة.

والجواب الصحيح عن ذلك - والله أعلم - إنه كل القرآن بكل ما فيه وما يحتوى عليه وما يتكون منه ، فالقرآن أسلوب ومعنى ، أو مبنى ومعنى . والقرآن فيه العقيدة ، وفيه الشريعة ، وفيه الأخلاق ، وفيه المعاملات ، وفيه الأخبار والقصص . وكل ذلك وغير ذلك مما يمكن أن يضاف الى القرآن هو معجز ، المبنى معجز والمعنى معجز .

فإذا ما ركزنا على الوصف الأهم للقرآن الكريم والذى يمثل فى نفس الوقت الوظيفة الكبرى والأساسية للقرآن الكريم ، وهى الهداية فإن إطلاق الإعجاز عليها يدخل دخولاً أولياً فى عملية الإعجاز القرآنى . وما ذلك إلا لأنها اولا الوظيفة الأولى بل والوحيدة فإذا لم يكن القرآن معجزاً فى وظيفته ففى أى شئ يكون إعجازه ؟ **وثانيا** لأنها الشئ الخالد الباقى الملازم للقرآن عند كل قدم وفى كل عصر وكل مكان ، يستوى فى ذلك العرب والعجم ومن مضى ومن هو حاضر ومن هو آت ، والجاهل والعالم .

وكما سبق أن ذكرنا فإن هداية القرآن هى أبلغ وصف للقرآن وأنها هداية شاملة ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، هداية للعقل وهداية للحواس، وهداية للقلب والوجدان والروح والنفس، هداية فى المال والاقتصاد والاجتماع والتربية والسياسة وغيرها، وهداية فى القيم والأخلاق. ولا عجب فى ذلك، فالقرآن هو المصدر الأساسى لذلك الدين الإسلامى الخالد الشامل.

ونضيف هنا أن هذه الهداية القرآنية هى هداية معجزة، بمعنى أنه لا يمكن لغير الله تعالى أن يأتى بمثلها فى كل صفات الحسن والكمال. ينطق بذلك العقل والمنطق، كما ينطق به الوحى والنقل والسمع. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ومضمون دلالة هذه الآية الكريمة على ما نقول لا يحتاج الى جهد وتبيين. فهو يهدى للأقوم والأمثل والأحسن فى كل مجال. وهنا موطن التحدى الأكبر. فليأت الناس جميعاً، بل والجن معهم بمثل هذه الهداية القرآنية فى كل جوانبها ومجالاتها. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقد نبه بعض العلماء بتوفيق من الله تعالى على أن المعجزة القرآنية الكبرى، الخالدة والشاملة تتمثل فى هدايته [1].

ويترتب على ذلك أن الإعجاز القرآنى لا يقف عند إشارته لهذه المسألة الخارقة والتى لم تعرف إلا حديثاً فى علم كذا أو علم كذا، كما يشيع اليوم على ألسنة بعض من يتحدثون فى الإعجاز القرآنى، وكأن هذه فقط هى وجه الإعجاز. ثم إن سياق الحديث يوحى بأن العلم الحديث الذى كشف عن هذه الحقيقة أو تلك، هو الذى جعلنا نكتشف أن فى ذلك إعجازاً قرآنياً، حيث تناولها قبل أن يتناولها العلم الحديث.

(١) الشيخ امين الخولى، من هدى القرآن / فى اموالهم، دار النشر للطباعة / القاهرة.

بمثلها

أقول إن فى ذلك القول إخلالاً بمفهوم الإعجاز القرآنى، **الدقيق، وخاصة إذا ما فهم بمفهومه الواسع الصحيح، وهو ما ينصرف الى الهداية القرآنية، والهداية القرآنية معجزة فى كل شئ ولا علاقة لها باكتشاف العلم أو عدم اكتشافه لهذا الشئ**. والذى يضعف هذا الفهم لدى البعض أن القول به يفيد زوال الإعجاز فى هذه المسألة فى عصرنا هذا، حيث قد توصل إليها الإنسان، أى أنها كانت معجزة فيما مضى أما الآن فلا وهذا خطأ محض، فالقرآن معجز فى كل عصر، وأمام كل جيل، وأمام أساطين العلم والمعرفة قبل غيرهم. وأصدق ما ينطبق ذلك إنما يكون على الهداية القرآنية التى تخاطب كل عصر وتهدى كل جيل، وكلما ارتقى العلم البشرى كلما ظهر جليا إعجاز الهداية القرآنية وعدم قدرة البشر على الإتيان بمثلها.

وبهذا نصل الى أن أدق المناهج وأصح المداخل لدراسة الإعجاز القرآنى، هو ما كان من خلال هداية القرآن الكريم فى هذا المجال العلمى أو ذاك. فكل دراسة جادة علمية موضوعية للقرآن الكريم فى أى مجال من مجالات العلم والمعرفة، هى دراسة فى الإعجاز القرآنى. وكلما كانت دقيقة وصائبة كلما كان كشفها عن الإعجاز القرآنى واضحا بارزاً. فإذا ما تحدث علماء الاقتصاد عن القرآن والاقتصاد، فإنهم يكونون بذلك فى ميدان ومجال **الإعجاز الاقتصادى القرآنى**، وهكذا بقية فروع العلم المختلفة.

ويتبقى أخيراً التنبيه الى أن الإعجاز القرآنى فى مجال العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتعرف عليه، ودراساته لا تقل أهمية عن الإعجاز القرآنى فى مجال العلوم الطبيعية. ذلك لأن الأولى مجال فكر ورؤية، عكس الثانية. ولأن الأولى كثيراً ما يتجاهل أصحابها الخالق وهدايته فيها،

بينما درجة تطاول أصحاب الثانية أقل . **لهذا كان للتحدى فى المجال الأول وهو المجال الاجتماعى أهميته الكبرى عنه فى المجال الثانى وهو المجال العلمى .**

طبيعة هذه الورقة وحدودها

مما سبق يمكن استشفاف طبيعة هذه الورقة ومضمونها ، إنها ورقة تأملية تدبرية فى الهداية القرآنية فى المجال الاقتصادى . فهى قاصرة على التدبر والنظر فى القرآن الكريم دون أن تمتد لتنظر قصداً فى السنة النبوية الشريفة. ومن ثم فيما يمكن أن تطلق عليه الإعجاز النبوى أو السنى ، مع العلم بأنه كما أن للقرآن إعجازاً فكذلك للسنة ، إذ الكل من عند الله. ومع العلم أيضا بأن التعرف على الإعجاز القرآنى يتطلب فى كثير من الحالات الالتفات الى السنة ، فهى التى بينت ما فى القرآن الكريم من جوانب الهدايات المختلفة .

ثم إن الورقة لا تدخل فى عمق وتفاصيل ودقائق الهداية القرآنية فى هذا الموضوع الاقتصادى أو ذاك . فهى ليست دراسة معمقة مفصلة موسعة لموضوع الإنفاق فى القرآن مثلا ، أو موضوع الإنتاج ، أو موضوع التبادل ، أو غير ذلك . إنما هى نظرة كلية عامة ، أو نظرة من الخارج وليست من الداخل ، إن صح التعبير ، لا تغنى أبداً عن هذه الدراسات المفصلة المعمقة المتغلغلة وراء جزئيات الموضوع .

فى ضوء هذا التمهيد ندخل فى صلب موضوع الورقة ونحن جميعا على بينة من أمرنا ، مقدمين نماذج من مشاهداتنا فى هذا الشأن .

المشاهدة الأولي

الهداية القرآنية تحيط إحاطة تامة بأبعاد وجوانب الظاهرة الاقتصادية. لقد تناول القرآن الكريم المجال الاقتصادى ، تناول إحاطة للأسس والمنطلقات الكبرى التى لا يستغنى عنها نشاط اقتصادى كفء ولا سلوك اقتصادى جيد ، مكتفياً فى بعضها بالأسس العامة ، مفصلاً بأدق ما يكون التفصيل فى بعضها الآخر ، وهو فى إجماله معجز ، كماأنه فى تحديده وتفصيله معجز.

وقد برهنت التجارب على أنه لو لم يحدد ما حدده ، ويفصل ما فصله ولو لم يجمل ما أجمله ، لكان وراء ذلك شر مستطير فى الحياة . ومن أبلغ وجوه الإعجاز القرآنى العلمى فى المجال الاقتصادى أنه مع هذا الاهتمام الزائد بهذا المجال كما وكيفا ، لا يختلج فى صدر القارئ الاقتصادى ما يوحى بأنه أمام كتاب فى الاقتصاد ، وهذه منزلة لا يرقى لها إلا كتاب الله العزيز .

المشاهدة الثانية

الشأن الاقتصادى يشيع فى الهدى القرآنى . فإذا كانت الهداية القرآنية قد احتوت الظاهرة الاقتصادية احتواءً كاملاً ، فإن هذه الظاهرة بدورها قد احتلت موقعاً متميزاً فى كل جوانب الهداية . ففى جانب العقيدة و جانب التشريع وجانب لأخلاق وجانب القصص نجد الهدى الاقتصادى . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٣،٤،٥] . وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ

وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١، ٢، ٣، ٤]، وقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ - ١٠] . وفى صلب التشريعات القرآنية تشريع الزكاة والمداينات وتحريم الربا وتحريم الغش والبخس وأكل أموال الناس بالباطل ، والكفارات المالية ، وتحريم الرشوة ، وحد السرقة وحد الحرابة .... إلخ .

وفى مجال القصص القرآنى لا نجد فى غالب الأمر قصة قرآنية إلا وتناولت الجانب الاقتصادى . وأقرأ إن شئت فى القرآن الكريم قصة خلق الأرض ، وقصة آدم وحواء فى الجنة ، وقصة بنى آدم ، وقصة نوح ، وقصة هود ، وقصة صالح ، وقصة شعيب ، وقصة يوسف ، وقصة سبأ ، وقصة ذى القرنيين ، وقصة أصحاب الجنة ... إلخ . بهذا تتأكد مشاهدتنا هذه حول الهداية القرآنية وموقع الشأن الاقتصادى فيها .

المشاهدة الثالثة

الهداية القرآنية فى المجال الاقتصادى تستخدم مصطلحات متميزة [1] ، حيث يشاهد القارئ الاقتصادى للقرآن الكريم :

(١) انظر شوقى دنيا ، القرآن و التنظير الاقتصادى ، مجلة مصر المعاصرة ، جمعية الاقتصاد السياسى والتشريع ، القاهرة .

أولا : أنه برغم شدة اهتمامه بالشأن الاقتصادى، كما سبقت الإشارة، فلم يستخدم الكثير من المصطلحات الاقتصادية الشائعة فى علم الاقتصاد، مثل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والموارد والتنمية والنمو والتخلف والضريبة. إلخ .

ثانيا : أنه استخدم العديد من المصطلحات غير المشهورة فى الأدب الاقتصادى ، مثل الإيثار والفساد والإصلاح والشكر والنعم و الطيبات والعفو والبركة والرزق والبخل والسفه والخبائث والكسب والعمران والزكاة والصدقات والابتغاء من فضل الله... إلخ . والمعروف أن لكل اسم ومصطلح إيحاءات ودلالات ، والمعروف أيضا أن الكثير من المصطلحات الاقتصادية الشائعة إما أنها ذات إيحاءات يغلب عليها الجانب السلبى ، أو أنها لا توحى بجوانب لها أهميتها ، وبالمثال يتضح المقال :

(١) القرآن الكريم برغم حثه واهتمامه الشديد بعملية الانتاج فإنه لم يستخدم مصطلح الإنتاج إطلاقاً ، وبدلا منه استخدم مصطلحات الكسب والابتغاء من فضل الله والسعى ... إلخ . والمعروف فى اللغة أن مادة نتج تنصرف أساساً الى النواحى المادية ، من قولهم نتجت الناقة إذا ولدت . والمعروف اقتصادياً أن عملية الإنتاج فى مفهومها الصحيح لم تعد قاصرة على النواحى المادية وإنما تعدتها الى الخدمات المتعددة ، والمصطلحات القرآنية بأصل وضعها تتسع لكل ذلك عكس المصطلح المستخدم اقتصادياً وهو الإنتاج ، كما أن التعبير عن هذا النشاط بالابتغاء من فضل الله يوحى من جهة بالجدية فى النشاط ، ومن جهة أخرى بأهميته لأهمية مقصودة وهو فضل الله .

(٢) لم يستخدم القرآن الكريم فى حثه المتزايد على استغلال الموارد وتحسين الأوضاع الاقتصادية مصطلح النمو أو التنمية . وإنما استخدم مصطلحات أخرى مثل الإعمار والإصلاح والتمكين إلخ . وقد بات

معروفا لدى الاقتصاديين ما فى مصطلح النمو وأيضا مصطلح التنمية من تشبع بالنواحى الكمية وضحالة فى النواحى النوعية والكيفية ، كذلك ما قد ينجم عنه من آثار سلبية عديدة . ومن ثم فقد أخذوا جاهدين فى تضمينه هذه النواحى الكيفية على مستوى الوسائل ، وعلى مستوى الغايات ، لكن المشكلة تكمن فى أن المصطلح فى أصل وضعه لم يخلق لهذا . ومن ثم فإن البحث جار ومنذ أمد عن مصطلح مغاير يتسع لكل هذه المضامين والمعانى المقصودة من هذه العملية .

(٣) لم يستخدم القرآن الكريم مصطلح الموارد مع كثرة تناوله لها فى العديد من سوره ، وفى مختلف أنواعها وحالاتها من زراعية لمعدنية لبشرية لمالية ... إلخ . وبدلا من ذلك استخدم مصطلح النعم ، وإشعاعات مصطلح النعم أفضل وأحسن بكثير من إشعاعات مصطلح الموارد ، ويكفى أنها توحى بأنها مصدر التنعم والترفه للإنسان ، كما توحى بأنها منح جليلة منحها المنعم وهو الله تعالى . وفى ذلك ما فيه من الحض على تقديرها وحمايتها وحسن الاستفادة بها .

(٤) رغم حثه الزائد على الإنفاق ورغم تقديم تشريعات وعبادات وشعائر انفاقية إلزامية ، فإن القرآن الكريم لم يستخدم إطلاقاً مصطلح الضريبة ، وإشعاعات هذا المصطلح فى غير حاجة إلى تبيان .

(٥) مع كثرة تناوله لاستخدام السلع والخدمات والاستفادة بها فى إشباع حاجات الإنسان ، الأمر الذى يدخله الاقتصاد تحت عباءة مصطلح الاستهلاك ، فإن القرآن الكريم لم يستخدم فى هذا السياق هذا المصطلح الشائع . وإشعاعات وإيحاءات هذا المصطلح تكاد تنحصر فى إهلاك السلع وإفنائها وإزالتها ، أخذا من مادة الكلمة (هلك) أى فنى وزال ، ومعنى ذلك أن النشاط الاستهلاكى هو نشاط تدميرى وإفنائى .

والحق أن ذلك البعد لايمثل إلا جانباً واحداً فى العملية ، وهناك الجانب الأهم فيها وهو البعد البنائى والايجادى والتكوينى، فإذا كانت السلعة تهلك باستخدامها فإنه يتولد من ذلك بناء طاقة إنسانية جسمية وفكرية وروحية سرعان ما توجد العديد والكثير من السلع والخدمات . وبالتالى فالمسألة ليست إهلاكاً بقدر ما هو بناء ، ولذلك خضعت للعديد من الضوابط الكمية والنوعية والإجتماعية ، حتى تنتج هذا الأثر الإيجادى البنائى ، ولا تصير مجرد عملية تدمير وإهلاك .

(٦) برغم حثه الشديد على حسن استخدام الموارد وعدم إهدارها من جهة أو تعطيلها من جهة ثانية مما يتناوله الاقتصاد تحت مصطلح التخلف الاقتصادى ، فإن القرآن الكريم لم يستخدم فى هذا السياق على الإطلاق مصطلح التخلف ، وبدلاً من ذلك استخدم مصطلح الإفساد وكفران النعم . ولا يخفى على الإقتصاديين ما هنالك من ملاحظات حول ، مصطلح ، التخلف ، وما يحمله من غموض ولبس من جهة ، وتحيز من جهة أخرى . عكس مصطلح الإفساد فهو واضح الدلالة من جهة وموضوعى من جهة أخرى . ومن ثم فهو وصف منفر مذموم تماماً ، بغض النظر عن أية ملابسات أو اعتبارات قد تثير من الخلاف والجدل ما يكاد يفسد الموضوع برمته ويقضى عليه.

وليس معنى هذا أن كل المصطلحات الاقتصادية المعهودة غير سليمة ، وليس معنى ذلك أيضا أن القرآن الكريم قد أتى على كل المصطلحات التى يمكن أن تستخدم فى المجال الاقتصادى . وإنما هى مجرد أمثلة ونماذج أراد القرآن الكريم ألا يحرمنا من هدايته فيها حتى نتخير ما نستخدم من مصطلحات ، مراعين ومستشعرين مالها من إيحاءات ودلالات .

المشاهدة الرابعة

القرآن الكريم أشار فى هدايته الاقتصادية إلى مايعرف فى علم الاقتصاد بالمقولات الوصفيه أو الوضعية (Descriptive- Postive) والمقولات المعيارية (Normative) . الأولى تتحدث عن الواقع كما هو ، وتصفه وتعرف به دون أن تتدخل فى توجيهه وتقويمه ، **والثانية** تتحدث عنه كما ينبغى أن يكون ، فهى توجه وتقود ، وترغب وتنفر . والمعروف أن العلم ، وبخاصة إذا ما كان فى دائرة ما يعرف بالعلوم الإجتماعية يتكون عموماً من هذين الجانبيين ؛ الوضعى والمعيارى . والإنسان فى جهوده العلمية والفكرية والمعرفية فى حاجة الى استخدام كل من المقولة الوضعية والمقولة المعيارية ، ومن ثم كان فى حاجة الى هداية وإرشاد لكل منهما .

ولم تحرمه الهداية القرآنية من التوجيه والإرشاد حتى فى هذه الناحية الفنية ، فاستخدمت فى تناولها للوضع الاقتصادى كلتا المقولتين . ونسوق هنا مجرد أمثلة . ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾، [النساء: ٥] ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾، [الإسراء : ٢٩] ، ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾[محمد ٣٧،٣٦]، ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[الأنعام ٢١]، ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] ، وغير ذلك (١) .

المشاهدة الخامسة

حول الصياغية القرآنية فى المجال الاقتصادى ، أو بعبارة أدق الهداية القرآنية فى المجال الاقتصادى ، تستخدم صياغات معجزة ، ومن عينة ذلك :

(١) د . شوقى دنيا ، القرآن والتنظير الاقتصادى ، مرجع سابق .

قـوله تعـالى : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء : ٥] .

الآية الكريمة تخاطب الجماعة ، لكن أية جماعة ؟ هل هى الأمة ؟ أم هى جماعة الأولياء والأوصياء ؟ أم هى الراشدون ؟ أم هم الحكام ؟ الآية تحتمل كل ذلك دون إخلال بالمعنى المقصود . ومن هم السفهاء ؟ هل هم الصغار ؟ هل هم المسرفون؟ هل هم محدودو العقل والتفكير ؟ هل هم قليلو الإيمان والتدين؟ هل هم الأفراد أم هم الحكام ؟ الآية تحتمل كل هذا ، وفى كلمة (أموالكم) نجد ضمير المخاطب الجمع ، فمن هو ؟ وما هى تلك الأموال؟

وهل هى أموال المخاطبين من العقلاء الراشدين ؟ و معنى ذلك أنه على كل عاقل رشيد ، فرداً كان أو جماعة أو أمة ألا تضع أموالها فى أيدى سفهائها ، أيا كان وضعهم وصفتهم . لكن ماذا عن أموال السفهاء أنفسهم أنترك فى أيديهم يعبثون بها ويضيعونها؟ الجواب : لا ، والآية صياغتها تفيد ذلك من طريق الأولى ، وتتقوى هذه الإفادة من خلال قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ فالأموال هى قيام الحياة وعصبها ، ومن ثم تجب المحافظة عليها ، أيا كانت وأيا كان صاحبها ، ولا يكون ذلك بوضعها فى يد السفيه الذى لا يحسن التعامل معها ، يستوى فى ذلك ماله أو مال غيره . ولكن لم كانت الإضافة الى ضمير المخاطب وليست الى ضمير الغائب ؟ كأن تكون « ولاتؤتوا السفهاء **أموالهم** » لأنها لو جاءت كذلك لانصرفت مباشرة واختصاصا الى أموال السفهاء فقط ، ولما دخلت فيها أموال المخاطبين ، وبالتالى تختل الهداية من جهة ، ويضيق نطاقها من جهة ثانية ، يضاف الى ذلك ما تلفت إليه الاضافة الى ضمير المخاطب الجمع من أن **الأموال هى أموال الجماعة كلها** ، وهى موضوعة تحت إدارة الأفراد بنظام محدد، وتظل كذلك طالما كان من تحت يده أمينا راشدا ، فإذا اختل سلوكه سحبت الأموال من تحت يده ووضعت

تحت يد رشيدة تحسن التعامل معها . وفى الوقت ذاته لا يترك السفهاء يتضورون جوعا وحاجة وإنما تكفل لهم الحياة الكريمة ماديا ومعنويا من خلال تنمية هذه الأموال وتثميرها والإنفاق من عوائدها ، وبالتالى فرفع يد السفيه عن المال فيه مصلحة له أولا وللجماعة كلها ثانيها . ولعل هذا هو السر فى التعبير القرآنى المعجز «**وارزقوهم فيها**» ، وكان الأقرب الى الذهن « **وارزقوهم منها** » .

والآية الكريمة تقدم فوق ذلك المقولة المعيارية والمقولة الوصفية متعانقتين . كذلك تدل الآية الكريمة على ضرورة توفر الإنسان الرشيد فى المجتمع ممثلا فى جماعة ، وإلا لما كان لهذا التوجيه والخطاب القرآنى معنى . وبالتالى فهى دعوة لإيجاد الأفراد الراشدين من المستهلكين والمنتجين والموظفين والحكام . وهكذا أحاطت الآية الكريمة ، على وجازة ألفاظها بالظاهرة الاقتصادية وقدمت الأسس الكفيلة بإقامة اقتصاد كفء وعادل على المستوى الكلى والجزئى .

٢ ـ **يقول تعالى** : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ونقصر النظر فى هذه الآية الكريمة على كلمة « جميعا » وموقعها فى نسق الآية . والسؤال المطروح هو : بم ترتبط هذه الكلمة وعلام تعود ؟ اتعود وترتبط بالضمير فى « لكم » ؟ أم ترتبط وتعود على « ما فى الأرض » ؟ الصياغة تحتمل هذا وتحتمل ذاك ، وفى كل دلالة إقتصادية بالغة الأهمية . **فإذا ما ربطت بالضمير فمعنى ذلك أن ما فى الأرض هو للناس جميعاً بغير تمييز ولا تفرقة بين جيل وجيل ولا بين جنس وجنس ، ولا بين دين ودين ، ولا بين مكان ومكان** ، فالنفع والاستفادة مما فى الأرض ممتد للإنسان والناس جميعاً على مستوى كل الزمان وكل المكان . فلكل إنسان الحق فى الإستفادة من الموارد الطبيعية التى خلقها الله تعالى ، لأنه

بنص الآية الكريمة خلقها الله لكل إنسان ، ولا يعنى ذلك إهدار ما هنالك من نظم تخول لكل واحد وتحدد له حقه ومداه ، شريطة ألا تتعارض هذه النظم والتشريعات مع هذا الاصل الذى شيدته الآية الكريمة .

ومن الدلالات الاقتصادية هنا المواجهة الجادة والحملة القوية على إحتكار أو إستئثار دولة أو فئة أو منطقة بخيرات العالم وترك البقية تتضور جوعاً وحرماناً وفقراً . والآية الكريمة بذلك تأمرنا بإقامة نظام اقتصادى عالمى عادل متكافئ . وإذا ما ربطت كلمة « جميعا » ب (ما فى الأرض) ، فمعنى ذلك أن كل ما فى الأرض من نبات وحيوان وجماد وحشرات وطير وغير ذلك . مما نعرف ومما لا نعرف ، مخلوق لمصلحة الإنسان وإفادته . ويستلزم ذلك ضرورة المحافظة على كل شئ فى الأرض وإلا فضياع أى شئ منها وإن قل ضياع لمنفعة ومصلحة الإنسان .

والآية الكريمة توضح بجلاء أن البيئة بكل مكوناتها وجزيئاتها مهمة وضرورية للإنسان . وبهذا فإن الآية الكريمة تأمر بالمزيد من البحث العلمى فى الكون ومفرداته ، حتى يتحقق مراد الله تعالى من خلقه لهذا الكون وهو نفع الإنسان . كما أنها دعوة إسلامية صريحة إلى إقامة نظام عالمى فعال لحماية البيئة فى كل مكان من شتى الوان الإعتداءات . ولو جاءت الصياغة القرآنية على نحو مغاير لما أفادت هذه الآية الكريمة كل هذه الهدايات . فمثلاً لو جاءت على نحو « هو الذى خلق لكم جميع ما فى الأرض ، لا نصرف الشمول والإحاطة بجانب البيئة فقط . ولو كانت هو الذى خلق لكم جميعاً ما فى الأرض ، لإنصرف الشمول الى الناس فقط . لكن النسق القرآنى المعجز بوضعه كلمة جميعاً فى موضعها هذا أفاد المعنيين معاً .

٣ ـ **الآيات الكريمات التى تتناول الزكاة أكثر من أن تحصى** .

ويلاحظ ان القرآن الكريم فى صياغته لتناول هذه الفريضة استخدم بشكل مطلق ،

فيما عدا حالة واحدة ، **مادة الإيتاء** كما استخدم مع الصلاة بشكل مكثف **مادة الإقامة** . فكثيرا ما نجد فى القرآن الكريم ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وقد استخدم الحديث الشريف نفس المادتين مع هاتين الفريضتين . ومع ذلك نجد فى القرآن الكريم آية واحدة إنفردت مع الزكاة بمادة الفعل . قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤] . فهل من حكمة وراء ذلك ؟ نعم ، ولعل من بعض جوانبها أن الايتاء يحمل فى دلالته اللغوية الإعطاء مع اليسر والسهولة (١) .

وبالتالى فالآية الكريمة ترشد الى ضرورة أن يقدم الإنسان زكاته بكل ما يستطيع من إقدام ويسر على النفس ، ورغبة لديها ، دون أن يستشعر من قريب أو بعيد أى ثقل أو عبء من أدائها وإخراجها . والآيات الكريمة فى ذلك تصف السلوك ، وفى الوقت نفسه توجه وترشد الى هذا السلوك القويم ، فهى وصفية معيارية معا ، أو خبر فيه معنى الإنشاء . أما الآية الكريمة الوحيدة التى جمعت بين الزكاة والفعل فمن المعانى التى تحتملها أن المؤمنين، من أجل الزكاة والقيام بها يمارسون أنشطتهم الاقتصادية بجد وفاعلية حتى يتمكنوا من نيل شرف إتياء الزكاة . **وبهذا تكون الزكاة دافعا ومحرضاً على النشاط الاقتصادى الناجح . وهكذا جمع النسق القرآنى حيال الزكاة بين الجدية والفاعلية والقوة فى تحصيل وعائها ، والسهولة واليسر والرغبة الدافعة لبذلها لمستحقيها.** وفى الجميع نجد المعنى الخبرى أو الوصفى والمعنى الإنشائى أو القيمى . ولا يرقى لذلك كلام غير كلام الله تعالى ، ولا ترتفع لمثل ذلك سوى الهداية القرآنية .

---

(١) الشيخ أمين الخولى ، من هدى القرآن / فى اموالهم ، مرجع سابق .

المشاهدة السادسة

الهداية القرآنية تتواءم كأقوى وأشد ما يكون التواؤم مع الفطرة البشرية . ويمكن توضيح ذلك من نواح عديدة يكفينا هنا ناحيتان : الاولى تتعلق بكم الهداية ، والثانية تتعلق بطبيعة الهداية .

أولا : الهداية من حيث الكم : السلوك الاقتصادى وإن تعددت شعبه وتنوعت مجالاته فإنه ينضوى تحت عنوانين كبيرين ؛ الكسب والإنفاق ، فالإنسان يكسب الاموال ثم ينفقها ، ويعود ثانية لإكتسابها وإنفاقها ، وهكذا فى دورة ممتدة متواصلة . والمعروف أن أى منهما لا يغنى بمفرده ، فلا يستغنى به عن أخيه ، كما أنه لا صلاح للحياة دون صلاحهما معا . ولقضية الكسب والانفاق العديد من الزوايا والجوانب ، منها علاقة كل منهما بالفطرة البشرية ، فمن المعروف أن لدى الإنسان نزوعا فطرياً نحو الكسب والانتاج وجلب الاموال وإمتلاكها ، بينما لا يوجد له ذلك حيال إنفاق الأموال ، وخاصة إذا كان الإنفاق على الغير . بل يمكن القول بوجود نوازع فطرية معاكسة لهذا السلوك . فبينما نجد الآية الكريمة تقرر الموقف الأول ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] نجد هذه الآية الكريمة تقرر الموقف الثانى ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠]

والقول بذلك يؤدى الى التسليم بأن التعامل الصحيح مع هذين السلوكين يكون بالتركيز القوى على السلوك الإنفاقى ، وتخفيفه على السلوك الإنتاجى، ذلك لأن الأول يحتاج الى مزيد من الهداية والإرشاد ، بينما يلعب عامل الفطرة حيال الثانى دوراً إيجابياً بارزاً يخفف من تركيز عامل الهداية والتوجيه .

لنرى كيف كان الهدى القرآنى حيال هذا الموضوع :

(١) بدأ الهدى القرآنى بتقرير عامل الفطرة حيال كل من الكسب والإنتاج من جهة ، و الإنفاق والتوزيع من جهة أخرى ، موضحاً إيجابية الفطرة ، حيال الكسب وحياديتها ، إن لم تكن سلبيتها حيال الإنفاق . والقرآن بذلك يعترف للإنسان بفطرته ولا يبدأ بمصادرتها ومصادمتها فيطمئن الإنسان اليه والى ما يقدمه له من هدايات وتوجيها ت .

(٢) توسع القرآن الكريم توسعاً مشاهداً ملحوظاً فى تناوله لقضية الإنفاق ، فنادرا ما تخلو سورة طالت أو قصرت من التعرض لهذه القضية فى جانب أو أكثر من جوانبها . بينما كان تعامله مع قضية الكسب موجزاً وسريعاً ، وفى تعامله معها لا نراه يهتم كثيرا بالأمر والتحريض على الكسب ، وإنما ينصرف إهتمامه الى ضوابطها وقيودها وأطرها . فنجد التأكيد وتكرار القول فى النهى عن الربا وعن الغش وعن الظلم وعن أكل أموال الناس بالباطل وعن الرشوة وعن الميسر وعن الغلول وعن السرقة .... إلخ . وهذا إنعكاس صادق أمين للواقع البشرى ، إذ من شدة حرص الإنسان على جلب المال قد لا يلتفت الى ماهنالك من طرق مشروعة وغير مشروعة لتحقيق ذلك . ومن ثم كان فى حاجة ملحة الى المزيد من التوحيد والإرشاد . **أما فى جانب الإنفاق** فنجد الهدى القرآنى يفصل القول فيه ويوسع فى تناوله ويتتبع المسألة من زواياها المختلفة ، ويعيد التذكير بذلك فى مختلف المناسبات ، فيتناول الدوافع والإهداف ويعظم من الجزاء ، ويتناول الأساليب والكيفيات ، ويتناول المقادير والجهات ، وغير ذلك من جوانب المسألة . وفى بعض الجوانب نجد القرآن الكريم يتخلى عن عادته فى الإجمال والإهتمام بالأصول والمبادئ العامة ويدخل فى تفاصيل التفاصيل ، ويعالج جزئيات الموضوع ، كما هو الحال فى إنفاق وتوزيع الزكاة ، وكما هو الحال فى

التركات . ونظرة سريعة على الآيات التى **تناولت الكسب والانتاج** والآيات التى **تناولت الإنفاق** ترينا كم هى سعة التفاوت العددى . وربما يكون فى الالتفات الى أمرين ما يزيد فهمنا وإدراكنا لما عليه الهدى القرآنى الاقتصادى من إعجاز .

الأمرالأول : أنه من المعروف لدى الإقتصاديين ، أن قضية الإنتاج أقل صعوبة وتعقيداً من قضية التوزيع . ومن المفارقات العجيبة أن علم الاقتصاد مع تسليمه بهذه الحقيقة فإن جهوده حيال **قضية الإنتاج** فاقت الى حد كبير جهوده حيال **قضية التوزيع** ، وهذا خلل منهجى واضح .

الأمرالثاني : أن القرآن الكريم فى حقيقة الامر لم يقلل من توجيهاته وإرشادته حيال قضية الكسب ، لإن الإنفاق إذا كان مهماً فإن الكسب يكتسب هذه الأهمية ، حيث لا إنفاق بدون كسب . فإذا حث القرآن على الإنفاق فإنه بطريق ضمنى يحث على الكسب ، ولاشك أن ذلك عند البلغاء ابلغ كثيراً من الحث على الكسب ثم معاودة الحث على الإنفاق .

ثانيا : الهداية من حيث الجوهر والطبيعة : لنأخذ على ذلك نموذجاً واحداً هو نموذج الغنى والفقر ، والأغنياء والفقراء ، **أو بعبارة أخرى قضية الملكية والتملك وجوداً وعدماً** . هذه القضية التى كانت ومازالت من أهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية التى واجهت وتواجه الإنسانية ، قد شغلت بال العلماء والفلاسفة والمذاهب والأنظمة عبر العصور . وغير خاف ما كان لدى الكثير من هذه المواقف من جنوح وانحراف يميناً ويساراً . فهناك من بالغ فى الثناء على الملكية ، وهناك من اعتبرها أس البلاء ، وهناك من بالغ فى ذم الفقر والفقراء وهناك من مدحهم وأثنى عليهم . لننظر فى الهداية القرآنية فى هذا الموضوع .

من حيث الفطرة فالإنسان مفطور على حب المال وحب التملك

والاستحواذ والغنى . قال تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، وقال تعالى عن الإنسان ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨]، وقال تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران : ١٤].

والسؤال المطروح هل هذه الغريزة سيئة؟ والجواب لا ، أولاً: لأنها فطرة الله التى فطر الناس عليها ، **وثانيا** : لأنها وراء عمارة الدنيا ، فكم أثارت من همم وأذكت من منافسة . بل إن القرآن ليشيد بالغنى ويحبب فيه ، فيقول تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. كما أن الغنى وكثرة الأموال قد جعله الله تعالى جزاءً على توبة وإستغفار العباد ، كما ورد على لسان نوح عليه السلام ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠، ١١، ١٢]. وهكذا لا نجد فى القرآن الكريم ما يشير من بعيد أو قريب الى إستهجان الأموال والتزهيد فى تملكها والانتفاع بها ، اللهم إلا إذا أسيء استخدامها ، فعند ذلك فقط نجد الذم الشديد. وبعد الاعتراف القرآنى بهذه العلاقة الانسانية بالأموال بواقعية كاملة نجد الهدى القرآنى يأخذ فى إرشاد وتوجيه الإنسان إلى ما ينبغى وما لا ينبغى أن يفعله مع هذه الأموال المحببة اليه .

وبهذا كان الهدى القرآنى واقعيا ومثاليا ، وبواقعيته طمأن النفس البشرية الى أنه معها فى فطرتها ونوازعها ، فاستجابت بذلك لمثاليته وتوجيهاته ، ولو لم يكن هكذا ما أطمأنت النفس الى ما تسمعه منه من هداية وإرشاد. ومن حيث الفطرة فإن الانسان بطبيعته يكره الفقر ، ويرغب فى التخلص منه ، وجاءت الهداية القرآنية معترفة بذلك مقرة به ، فلم نجدها تدعو الفقراء الى الركون اليه

ومحبته وإنما أرشدتهم الى حقهم فى الحياة الكريمة التى توفر لهم إحتياجاتهم الأساسية اللائقة ، بل وحملتهم بطريقة ضمنية جانباً من المسئولية عن وضعهم هذا وحرضتهم بطرق مباشرة وغير مباشرة على التخلص منه. وأسمعتهم مراراً وتكراراً كلام القرآن الكريم مع الأغنياء عنهم ، وضرورة الاهتمام بهم وإزالة ما هم عليه من فقر وعوز ، كما أسمعتهم أن لهم فى أموال الأغنياء حقوقاً ، ومن ثم فعليهم أن يحصلوا على هذه الحقوق ، دون منّة من الأغنياء .

كذلك أسمعتهم أمراً أعجب من ذلك بكثير ، وهو حديث القرآن المتكرر عن المؤمنين المتقين وعن صفاتهم وأحوالهم ، وقد برز بين تلك الصفات صفة الغنى والقدرة المالية التى تجعلهم ينهضون بعبادة الزكاة وعبادة الحج وعبادة الجهاد وتقديم الصدقات للغير والإنفاق فى سبيل الله، الذى يتمثل فى المصالح الحقيقية العامة . ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يريد لفت أنظار الفقراء الى أن وضعهم هذا حال بينهم وبين القيام بتلك العبادات والطاعات والشعائر ، ومن ثم حصول الشرف لهم بقيامهم بهذه الطاعات ، ومعنى ذلك أن على الفقراء حتى يكتسبوا شرف القيام بذلك أن يتخلصوا من فقرهم بكل الوسائل الممكنه .

صحيح أن الإسلام أسقط عنهم التكليفات المالية هذه ، لكن سقوط التكليف شئ والتمكن من القيام به شئ أخر، وفى كل خير، وعلينا أن نعى ونتدبر جيدا الآية القرآنية ، والذين هم للزكاة فاعلون ، ، فمن صفات المؤمن أنه يسعى حثيثاً وبكل جهده فى المجال الاقتصادى حتى يتمكن من إيتاء الزكاة. كذلك لنتدبر هذا المشهد القرآنى الرائع ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [لتوبة : ٩٢]. فالمشهد مشهد حرب وجهاد وتعبئه ، ولم يركن الفقراء الى كونهم غير قادرين ، ومن ثم فلهم عذرهم ، لكنهم ذهبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون العتاد والعدة للمشاركة فى الجهاد ، ولم

يجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يلبى به طلبهم فما كان منهم إلا الحزن الشديد الذى عبر عن نفسه حسياً فى هطول الدمع الغزير لعدم توفر مايمكنهم من المشاركة فى هذه العبادة ، ولم يستطيعوا البقاء فى ساحة التجهيز والإعداد فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لعدم وجود ما ينفقون فى هذا المجال. وقد سجل القرآن هذا الموقف الرائع لا لمجرد الإشادة بأصحابه وإنما مع ذلك لأخذ الدرس ولفت الأنظار الى أنه ينبغى على كل إنسان أن يبذل قصارى جهده حتى تزول عنه سمة الفقر التى تحرمه من الكثير من الطاعات . والحديث الشريف يصور واقعاً مماثلاً ، إذا جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ يشكون حالهم حيث ذهب أهل الدثور- الأموال- بالأجور ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ثم يتصدقون بفضول أموالهم ، فوجههم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما يعوضون به هذا القصور . فما كان منهم إلا أن قالوا يا رسول الله سوف يفعل الأغنياء ذلك أيضاً ، وتظل لهم ميزة التفوق المالى الذى به ينالون الثواب الكبير، فما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن قال : **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** . والحديث الشريف مليء بالعبر والدروس ، منها أن الفقير المسلم يحرص الحرص كله على زوال فقره لا بدافع اقتصادى مادى يتمثل فى تمكنه من إشباع حاجاته المادية ، وإنما بدافع دينى يتمثل فى تمكنه من إشباع حاجاته الروحية ، ومنها أن الغنى فضل الله تعالى ، وبالتالى فعلى كل انسان أن يحرص على أن ينال فضل الله هذا .

وهكذا يمكن القول إن الإسلام استخدم فى مواجهته لمشكلة الفقر العديد من الطرق التى منها المدخل الدينى ، وكأنه يقول للفقير إن فقرك هذا وإن أسقط عنك الإثم إلا أنه يحرمك من ثواب الكثير من الطاعات. ومن المهم هنا التحذير من منزلق خطير وقع فيه بعض الكتاب من مسلمين وغيرهم.فمهما اشتدت حملة الإسلام

على الفقر ، فإن الهداية القرآنية قد حرصت الحرص كله على عدم توجيه أى ذم للفقراء أو وصفهم بأية صفة غير حسنة ، إلا إذا كانوا هم السبب فى فقرهم ، وفيما عدا ذلك يتوجه الذم الى الأغنياء والأوضاع والنظم السائدة .

ولعلنا بذلك نلمح جنوح أحمد الدلجى عندما حمل حملة شديدة قاسية على الفقراء فى كتابه « الفلاكة والمفلوكون » . وكذلك ما فى فكر وآراء القس الإنجليزى مالتس من جنوح ، عندما حمل على الفقراء وحرض الدولة على عدم الوقوف معهم.

هذه بعض المشاهدات حول الهداية القرآنية فى المجال الاقتصادى،وهى رغم قصرها وتواضعها فإنها تظهر بوضوح بعض ملامح الإعجاز القرآنى الاقتصادى .

والله أعلم .